الشعر الجاهلى

تأثيره ومنزلة رجاله

بقلم الاستاذ السباعى السباعى يومى

المدرس بدار العلوم

لقد كان للشعر الجاهلى فى العرب تأثير ما أبلغه من تأثير ، ولرجاله بينهم مكانة ما أرفعها من مكانة ، ذلك أنهم كانوا ذوى فطر سليمة ، ونفوس حساسة ، وكان الشعر طبيعة فيهم ، تمتزج منهم بالدم واللحم ، لا يزالون يقولونه ، ويستوحون سماءه ، فينقادون لخياله ، ويخضعون لأحكامه .

وكان للشعراء عليهم نفوذ وسلطان ، لا يقل شأناً عن نفوذ الصحف السيارة الآن على الأفراد والجماعات ؛ فكانت كل قبيلة تغتبط بكثرة شعرائها ، وتتخير من بينهم أقواهم حجة ، وأبلغهم قولا ، ليكون المشيد بمحاسنها ومفاخرها ، الذاب عن أحسابها وأعراضها . ولقد أثر فيها أثر أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر ، أتت القبائل الأخرى لتهنئتها ، فصنعت الأطعمة ، ومدت الموائد ، وتباشر الرجال والولدان ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعن فى الأعراس .

ولشدة ما كان للشعر من تأثير ، جاوز فيه المنطق ، وتعدى المعقول ، نسبته العرب إلى الجن ، وسمت الشعراء بالساحرين ، قال رؤبة :

لقد خشيت أن تكون ساحرا راوية مرآ ومرآ شاعرا

ففى كل باب من أبوابه ، كان يبلغ الشاعر ما لا يبلغ غيره : إذا نسب رقق القلوب القاسية ، واستنزل العصم العاصية ، وإذا وصف أراك ما لم تر ، كأنه المرئى ، وقد يكون تمثيلا لا يستند إلا إلى الخيال والتصوير ، وإذا رثى أثار الشجون ، وحرك مكامن الذكريات ، فاذا ما فخر بالحماسة والاستبسال — وهذا أكثر ما يكون — حبب إلى الجبناء القتال ، وأرخص الموت على مغلى الحياة . قال معاوية بن أبى سفيان : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فلقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل ، بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملنى على الاقامة إلا أبيات عمرو بن الأطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وإقحامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح

وقولي كما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعد عرض صحيح

وابن الاطنابة من شعراء الخزرج الجاهليين.

أما شعراء المديح والهجاء، فقد كانوا شقاء أقوامهم، وسموم أعدائهم، لا يزالون لقبائلهم يحمون سلطانها، ويرفعون بنيانها، فيذبون عن حياضها، ويدافعون عن وردها. وأمر احتماء القبائل بشعرائها كثير الحوادث، مروي الأخبار، فلا حاجة إلى الخوض فيه، ولكن الذي نريده أقوى حجة في تأثير الشعر: أن الشاعر كان إذا تعرض لقبيلة بهجاء، وفيها من الشعراء من يخشى لسانه، ويتقى هجوه، لم يك أمام قبيلته - في دفع ما تحذر - إلا حمله إلى من هجاهم متبرئة منه، مسلمة فيه، وهذا ما حدث حين هجا عبد الله بن الزبعرى السهمي بن قصي، فقد حمله السهميون إلى عتبة بن ربيعة خوف هجاء الزبير بن عبد المطلب، وكان شاعراً شديد العارضة قذع الهجاء، فلما وصل عبد الله إليهم أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه، فقال عبد الله غير مستنكر ما فعلت عشيرته:

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فان قصياً أهل مجد وعزة وأهل فعال لا يرام قديمها

وكان الزبير غائباً بالطائف، فلما حضر مكة وعلم الخبر قال:

فلولا نحن لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا
ثيابهم سمال أو طمار بها ودك كما دسم الحميت
ولكنا خلقنا إذ خلقنا لنا الخيرات والملك الفتيت

وكان الشاعر إذا رضي لنفسه أن يتجاوز بمدحه وهجائه قبيلته وأعداءها، تطلعت إليه القبائل الأخرى، فأخذت تقربه رجاء مدحه فيها وهجائه لناظريها، كما كان من الحطيئة، وقد استضافه الزبرقان بن بدر من بني يهدلة، وقصرت امرأته في إكرامه وهو غائب، فأخذه بغيض بن عامر من آل لأي بن شماس، وبالغ في إكرامه مراغماً للزبرقان، فكان خير ما قال الحطيئة من شعر في هذين الحيين هجاء ومدحا، قال يهجو ويمدح في ان، والقبيلان ابنا أخوين:

ولما أن أتيتكم أبيتم وشر مواطن الحسب الاباء
ولما أن أتيتهم حبوني وفيكم كان لو شئتم حباء
ولما أن مدحت القوم قلتم: هجوت، وهل يحل لي الهجاء؟
فلم أشتم لكم حسباً، ولكن حدوت بحيث يستمع الحداء
فأبقوا لا أبا لكم عليهم فان ملامة المولى شقاء

وإن أباهم الأدنى أبوكم وإن صدورهم منكم براء

ولولا أن هذه الحادثة فى خضرمة الخطيئة ، لأتينا من أشعاره فيها بالكثير .

هذا إلى أن التحاسد على الشعراء لم يك قاصراً على القبائل ، بل تعداها إلى الملوك ؛ وهذا النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، تبصر كيف كان اجتذابه للنابغة يمدحه ويمدح آل بيته ، وكيف حسده عليه الغساسنة ملوك الشام ، فأعظموا حباءه حتى مدحهم ، ثم كيف كان غضب النعمان عليه لهذا الانحراف غضباً سارت باعتذارات النابغة من أجله الأمثال ، ومع هذا لم ينل من النعمان رضاً ، لأن الشركة فى هذا الباب بين متناظرين ليست مما يطاق ، ولو أردنا لهذا ضرب الأمثال لكان ديوان النابغة جله نماذج لما نقول .

ومن غريب تأثير الشعر إذ ذاك ، أن الشاعر كان إذا وصم سيداً بهجاء لم يجد من يغسل عنه ذلك إلا هذا الشاعر نفسه . ذكروا أن بشر بن أبى خازم الأسدى حمل على هجاء أوس ابن حارثة بن لأم الطائى فهجاه بأشعار كثيرة ، منها قوله :

الا أبلغ بنى لأم رسولا فبئس محل راحلة الغريب
إذا عقدوا لجار أخفروه كما غر الرشاء من الذنوب
وما أوس ولو سودتموه بمختبى العرام ولا أريب
أتوعدنى بقومك يا ابن سعدى وذلك من ملمات الخطوب
وحولى من بنى أسد عديد مبن بين شبان وشيب
إذا ما ثمرت حرب سمونا سمو البزل فى العطن الرحيب

والقصيدة طويلة ، ثم وقع بشر أسيراً عند بنى نبهان من طيء ، فاشتراه أوس بمائتى بعير ، ولما أخذه قال له : هجوتنى ظالما ، فاختر بين قطع لسانك وحبسك فى سرب حتى تموت ، وبين قطع يديك ورجليك وتخلية سبيلك ؛ هكذا ذكر الرواة ، ولكن رأيى : أن استقامة القول تقتضى قرن التخلية بقطع اللسان ، حيث لا خوف منها ، وجعل الحبس مع تقطيع اليدين والرجلين حتى لا يقول ؛ فسمعت أمه — وهى سعدى بنت حصن من سادات طيء — قول ابنها هذا لبشر ، فقالت له : يا بنى ، لقد مات أبوك فرجوتك لقومك عامة ، فأصبحت والله لا أرجوك لنفسك خاصة ؛ أذعت أنك قاطع رجلا هجاك ، فمن يمحو إذن ما قال فيك ؟ قال : فما أصنع به ؟ قالت : تكسوه حلتك ، وتحمله على راحلتك ، وتأمر له بمائة ناقة حتى يغسل مديحه هجاءه ، ففعل ، فامتدحه بشر فأكثر . قال أبو محمد الأخفش : «مدح بشر أوساً وأهل بيته مكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة ، وكان هجاهم بخمس فمدحهم بخمس » ، فمن مدائحه فيه قوله من قصيدة (والخطاب للناقة) :

إلى أوس بن حارثة بن لأم ربك فاعملى إن لم تخافى

فما صدع بعبة أو بشرج على زلق زوالق ذى كهاف
تزل الفوة الشعواء عنها مخالبها كأطراف الأشاف
بأحرز موئلا من جار أوس إذا ما ضيم جيران الضعاف
وما ليث بعثر فى غريف تغنيه البعوض على الطناف
مغب ما يزال على أكيل يناغى الشمس ليس بذى عطاف
بأيأس سورة بالقرن منه إذا دعيت نزال لدى النعاف
وما أوس بن حارثة بن لأم بغمر فى الأمور ولا مضاف

ومن ذلك ما كان من حسان بن ثابت فى بنى عبد المدان ، إذ هجاهم ببسطة أجسامهم وكانوا يفخرون بها ، فقال :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير

فلم يزالوا يخجلون من أنفسهم حتى محا ذلك عنهم بقوله :

وقد كنا نقول إذا التقينا بذى جسم يعد وذى بيان
كأنك أيها المعطى لسانا وجسماً من بنى عبد المدان

وأغرب مما تقدم فى تأثير الشعر ، أن الشاعر كان إذا تعرض لنابه أنزله من ذروته ، وإذا مدح خاملا رفعه من وهدته . فمن قضى الشعر على مكانتهم ، الربيع بن زياد، وكان من خواص النعمان ، لا يزال ينادمه ويؤاكله ، حتى إذا ما سمع فيه أرجوزة لبيد :

« مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه »

وفيها إقذاع أعرض عنه. فقال الربيع : أبيت اللعن أيها الملك كذب الغلام، وأخذ فى الاعتذار فلم يصغ النعمان إليه ، وقال :

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً فما اعتذارك من قول إذا قيلا ؟

ثم حجبه ، فسقطت منزلته . ومن رفعهم ـ بعد خمول ـ المحلق الكلابى ، وكان مملقاً كثير البنات ، قد رغب عن مصاهرته الأزواج ، فأشارت عليه امرأته أن يضيف الأعشى وهو قادم إلى الموسم ، فيكرمه بما يملك ليقول فيه قولا تتزوج منه بناته ، وتحسن حاله ، ففعل؛ ولما أصبح الأعشى بمكانه ، أنشد قافيته المشهورة التى يقول فيها فيما نحن بصدده :

نفى الذم عن رهط المحلق جفنة كجابية الشيخ العراق تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم مع القوم ولدان من النسل دردق
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق
رضيعى لبان ثدى أم تحالفا بأسحم داج عوض لا تتفرق

ترى الجرد يجرى ظاهراً فوق وجهه كما زان متن الهندوانى رونق

فما أتم القصيدة إلا والناس يتسللون إلى الحلق ، يهنئونه ويخطبون إليه بنانه ، فلم تمس واحدة منهن إلا فى عصمة رجل بين الفضل على أبيها ، وهذا من التأثير السحرى للشعر .

بل لقد بلغ من تأثيره أنه كان ببيت واحد يجعل مفخرة القبيلة مسبة ، ومسبتها مفخرة . حدثوا أن بنى العجلان كانوا يفخرون بهذا الاسم لأبيهم ، لما روى من أنه لقب به ، لتعجيله قرى الأضياف ، فلما هجاهم النجاشى بأبياته التى يقول فيها :

وما سمى العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

صاروا يستحيون منه . وعلى غير هذا كان بنو أنف الناقة ، يخجلون من هذا اللقب ويتجاوزونه فى نسبهم ، حتى قال الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا ؟

فصاروا يتطاولون به ويعدون أصوانهم فيه بجهارة .

***

فالشعر فى تأثيره كان كما قيل فيه :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم

وقديماً تنافر عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة إلى هرم بن قطبة ، فسوى فى الحكم بينهما ، ولكن الأعشى قال :

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر

إن تسد الجوص فلم تسدهم وعامر ساد بنى عامر

إلى آخر ما قال ، فنفر الناس عامراً بهذا الشعر ، ولم يأبهوا إلى ما كان من تسوية الحكم بينهما .

***

هذا بعض ما كان للشعر من تأثير فى العهد الجاهلى ، ومنه كان الشعراء ذوى منزلة ترجى وترغب ، كما تخاف وترهب ، فلا يزالون يستخدمون فى الوعيد والاغراء ، ويستعان بهم فى الاستعطاف والاستشفاع ؛ فقد أغرى أوس بن حجر النعمان بن المنذر على بنى حنيفة فنكل بهم ، واستشفع علقمة الفحل الحارث الغسانى فى أخيه شاس وتسعين أسيراً معه من تميم فأطلقهم له جميعا ، وكذلك كان شأنه وأشد بعد الاسلام ، ولكن ليس هنا مجال القول فيه . ؟

السباعى السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم